الباب السابع

شوقى الشاعر الإنسان فى وصفه ومدائحه ومراثيه

الشعر الإنسانى فى كل ما نظمه شوقى الشاعر الإنسان ، كان ينساب كالجدول والنهر النمير ، يطرب سامعه ويثير إعجابه بما تضمنته منظوماته فى كل مناسبة ينظم فيها ويبعث فى كائنات ما يصف الحياة وكأنما هى مخلوقات حية تحس وتتألم ، وسبق لنا أن دللنا على ذلك بأمثلة عديدة من شعره .

وحيثما وقع نظرك على نظم له . استوقفك منظر أو قصة أو حوار . تسرى فى جنباته الإنسانية المفعمة بالحب والخير ونشدان الكمال .

تعالوا ننظر إلى هذه القصيدة التى تشبه الأرجوزة فى الرفق بالحيوان :

الحيوان خلق له عليك حق
سخره الله لكا وللعباد قبلكا
حمولة الأثقال ومرضع الأطفال
ومطعم الجماعة وخادم الزراعة
من حقه أن يرفقا به وألا يرهقا

إن كل دعه يستريح وداده إذا جرح
ولا يجع فى داركا أو يظم فى جواركا
بهيمة مسكين يشكو فلا يبين
لسانه مقطوع ومآله دموع

ويقول محيا غاندى فى جهاده من أجل استقلال بلاده ، وكان غاندى فى هذا الجهاد يحيى مصر فى جهادها من أجل استعمار اكتوى هو وشعبه بناره :

سلام النيل يا غاندى وهذا الزهر من عندى
وإجلال من الأهـ ـرام والكرنك والبردى
ومن مشيخة الـ ـوادى ومن أشباله المرد
سلام حالب الشاة سلام غازل البرد
ومن صد عن الملح ولم يقبل على الشهد
ومن يركب ساقيه من الهند إلى السند
سلام كلما صليت عرياناً وفى اللبد
وفى زاوية السجن وفى سلسلة القيد

* * *

ولعل من أرق ومن أعمق ما رثى به ابن كشوق أباه المرحوم على بك شوق هذا الرثاء الفلسفى العميق :

سألونى لِمَ لَمْ أرث أبى ؟ ورثاء الأب دين أى دين

أيها اللوام ما أظلمكم أين لى العقل الذى يسعد أين
يا أبى ما أنت فى ذا أول كل نفس للمنايا فرض عين
هلكت قبلك ناس وقرى ونعى الناعون خير الثقلين
غاية المرء وإن طال المدى آخذ يأخذه بالأصغرين
وطبيب يتولى عاجزًا نافضًا من طبه خفى حنين

ثم يمضى ليقول فى فلسفة حزينة عميقة :

أنا من مات ومن مات أنا لقى الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة فى بدن ثم صرنا مهجة فى بدنين
ثم عدنا مهجة فى بدن ثم نلقى جثة فى كفنين
ثم نحيى فى (على) بعدنا وبه نبعث أولى البعثتين
انظر الكون وقل فى وصفه كل هذا أصله من أبوين

* * *

ولقد تعرض المتنبى لنقاد زمانه مثلما تعرض شوقى لناقدى شعره الذى حوى الكثير من المدائح والتهانى والمراثى . ومن عجب أن نجد المتنبى وهو الشاعر العربى الأثير لدى شوقى ، يشترك معه فى تلقى سهام الناقدين . وكان الأمر بين الشاعرين فى المديح يختلف ، وكذلك فى التهانى والمراثى . فقد كانت الصناعة الشعرية فى عهد المتنبى ، والحاجة لمطالب العيش ، كانت تدفعه إلى سلوك هذا المسلك . أما شوقى الذى عاش فى رغد ونعيم وعلو شأن ، فقد كان وفاؤه لإخوانه وأحبابه ورقة مشاعره هى التى لم تقعد به يوماً عن أن يهنئ أو يمتدح أو يرثى كلما وقع

حادث من هذه الأحداث . بل إن سكوته هو الذى يعاب عليه . إن هو سكت أو توانى . كما قال عندما رثى أباه بعد أن توانى ولحقه من ذلك اللوم .

وحدث للمتنبى وهو آنذاك شاعر سيف الدولة أمير ولاية حلب ، أن تلقى نبأ وفاة رضيع صغير لسيف الدولة ، فلم يكن منه إلا أن ساوى بين الفطيم والعظيم فى موقف الموت ورثاه بقوله :

فإن تك فى قبر فإنك فى الحشا ... وإن كنت طفلاً فالأسى ليس بالطفل
أيفطمه (التوراب[1]) قبل فطامه ... ويأكله قبل البلوغ . إلى الأكل

هذا الرثاء لفطيم فقده أبوه ، وله من قبله فتيان وصبايا ، غير أن المتنبى لم يفرق بين كبير وصغير ، لأن الأسى لا يدرك هذه الفوارق . فهو إن وقع ، فقد أصاب القلب بالهم والعين بالدمع .

* * *

وعندما أقيم احتفال مهيب لتمثال نهضة مصر ، انبرى شوقى فى هذا الحدث ليقول قولا رنَّ فى سمع الزمان ، وامتلأ بالفخار والحكمة والشعر الرصين .

وهو فى هذا لا يمدح محمود مختار صانع التمثال وإنما يعود بالذكرى لمجد مصر الخالدة ، فماذا كان يطمع فى نيله من مختار ؟ إنه شاعر كل حدث جليل .

قال فى هذه المناسبة التى لا ندرى كيف يلام من قالها على أنه شاعر

---

(١) التوراب لغة فى التراب . وهو يعنى أن التراب يفطمه قبل أن يعين موعد فطامه . ثم يأكله قبل ينعم كيف يأكل . هذا رثاء يحمل كل هذه الحكمة البالغة واللفظ البديع .

للمناسبات والذكريات ، وماذا فى الحياة سوى ماضٍ دابر ، ويوم حاضر . وغد مرتقب .

جعلت حلاها وتمثالها عيون القوافى وأمثالها
وأرسلتها فى سماء الخيال تجر على النجم أذيالها
وإنى لغريد هذى البطاح تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالها

ثم يمضى بعد أن يخطر من لم يكن يعلم أنه شاعر هذا الوطن وترجمان صدق فى كل ما يحيط به من نحوس أو سعود :

لقد بعث الله عهد الفنون وأخرجت الأرض مثالها
تعالوا نرى كيف سوى الصفاة فتاة تلملم سربالها
دنت من أبى الهول مشى الرءوم إلى مقعد هاج بلبالها
وقد جاب فى سكرات الكرى عروض الليالى وأطوالها
وألقى على الرمل أرواقه وأرسى على الأرض أثقالها
فهل سكبت فى تجاليده شعاع الحياة وسيالها
أتذكر إذ غضبت كاللباة ولمت من الغيل أشبالها
وألقت بهم فى غمار الخطوب فخاضوا الخطوب وأهوالها
وثاروا فجن جنون الرياح وزلزلت الأرض زلزالها
ومن ذا رأى غابة كافحت فردت من الأسر رئبالها
وأهيب ما كان بأس الشعوب إذا سلح الحق أعزالها

إن قارئ هذه القصيدة ، يحس كما لو كان ناظمها يحمل سيفاً ، ويلوح به مفتخراً مختالاً بأمته التى خاضت الخطوب والأهوال وثارت على القسر والقهر . وكأنها الريح قد ثارت فى جنون ، وكأنها الأرض قد غشيها زلزال ، حتى تم لها ما ثارت من أجله ، مهما بدا من خلو يدها من السلاح ، فقد سلحها الحق بما هو أقسى وأمضى من كل سلاح .

والحديث يطول فى وصف أو مرائى شوقى . وإن كان قد سبق أن ذكرنا طرفاً من مراثيه فى الندوة الأولى ، فإن العودة فى هذه الندوة إلى ذكر بعض المراثى أو الوصف ، إنما مردها إلى ما احتواه الجديد من فلسفة ومعرفة بالحياة وإدراك لحبائلها وخداعها .

* * *